الامريكيون انفسهم ، بحيث يتبين مدى خطأ اولئك الذين لا زالوا يتحدثون عن امكانية تحييد امريكا ، وينتظرون الحل على يدها . ثم لا يتردد الكاتب في اعلان ذلك بشكل مباشر ، بعد ان يقدم كمسل الادلة التي تؤيد وجهة نظره فيقول : « علينا نحن ان نتحرك — سلما او حربا — وعيوننا مفتوحة جيدا على كل ما يجري هناك . فعدونا ليس هو فقط اسرائيل بملايينها الثلاثة ، وانما عدونا ايضا هناك ، على الجانب الاخر من المحيط الاطلسي ، هو الجناح الرجعي المتطرف من المؤسسة الاحتكارية الصهيونية ، بكل ما يملك من نفوذ على اداة الحكم وسائر الاجنحة الاخرى» (ص ٤٦) .

ومع اني اسلفت انه لا حاجة الى الوقوف امام نقاط الضعف ، فان هذه العبارة تكشف نقطة خلافية تستحق الذكر . ذلك ان الكاتب في سبيل تاكيد مدى خصوصية العلاقة بين اسرائيل والصهيونية وامريكا قد اورد كثيرا من الحقائق التي تدل على ذلك ، وهذا امر لا غبار عليه ، بل هو ضروري ، ولكن من الخطأ تصوير ان امريكا كلها « لعبة صهيونية » او انها اي الصهيونية تبسط — على حد تعبير المؤلف — « سيطرتها تماما على الولايات المتحدة وتسخير كل ثروتها وقوتها ووزنها الدولي في سبيل تنفيذ الحلم الصهيوني » (ص ٤٨) بحيث تقع « امريكا في شبكة العنكبوت الصهيوني » (عنوان الفصل الرابع) وبحيث تكون الصهيونية هي الامبريالية كاملة ويكون « الهدف الحقيقي للصهيونية هو بسط سيطرتها على العالم كله » ! !

اعتقد ان المبالغة واضحة ، ذلك ان الصهيونية لا تعدو ان تكون جزءا من الامبريالية ، بل وجزءا ليس قوي الوزن في اطار « الاخطبوط الامبريالي » بحيث تكاد ان تكون احيانا مجرد اداة لتحقيق الاهداف الامبريالية في المنطقة ، وبحيث تكاد تفتقد — اقول تكاد — استقلالها الذاتي في اكثر الاحيان . اما نفوذ الصهيونية داخل الكونجرس ، وفي البيت الابيض ، وفي وزارة الدفاع الامريكية ، فليس الا لعبة « صناعة امريكية » . ولذلك فمن الخطأ تصوير امريكا بكل جبروتها ونفوذها على انها مجرد جزء من « المؤسسة الصهيونية العالمية» هذا خطأ ، وخطأ ايضا قول المؤلف : « انه حتى هذه اللحظة ، فان اي قرار او موقف تتخذه الولايات المتحدة الامريكية على الصعيد الرسمي انما هو في حقيقته وجوهره قرار وموقف المؤسسة الصهيونية العالمية . اي انه قرار يضع في المقام الاول مصلحة اسرائيل ، وفي المقام الثاني مصلحة الدوائر العليا في الاوليجاركية الامريكية المرتبطة تماما براس المال الصهيوني ، وفي المقام الثالث مصلحة الرأسمالية الامريكية ككل » (ص ٧٠) .

بالاضافة الى ذلك ، يؤخذ على المؤلف ميله الى القول بامكانية انهيار اسرائيل من الداخل او بنص كلماته « ان الظروف الذاتية داخل اسرائيل قد اصبحت مهيأة — اي ناضجة — لحدوث الانهيار في اسس الكيان الصهيوني بأكمله » وان كان يرى ان الظروف الذاتية وحدها لا تستطيع ان تحدث هذه العملية التاريخية اذ يجب ان تتوفر معها ظروف موضوعية مناسبة للوصول الى نفس النتيجة . (ص ١٩) ونقطة الخلاف هنا ان اسرائيل لم تعد حتى الان وحتى بعد حرب اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧٣ مهيأة للانهيار من الداخل ، ان تلك عملية معقدة ، وليس هناك جدار ينهار من تلقاء نفسه الا اذا تقوض اساسه تماما ، وليست اسرائيل في هذا الوضع حتى الان .

وعلى اي حال ، فاختلاف الراي لا يفسد للود قضية ، كما انه لا يقلل من شجاعة هذا الكتاب ، وجرأة مؤلفه الذي يضع فوق كل حرف نقطة بارزة واضحة ويتساءل ماذا تريد امريكا ؟ ويجيب تريد اخراجنا من حالة الثورة الى حالة اللاثورة (ص ٩٧) ثم يتساءل هل نحن مستعدون لدفع هذا الثمن ولا يتردد في ان يجيب « اننا لا نستطيع ان ندفع الثمن الذي يطلبونه ، حتى لو حاولنا فلن نستطيع . فان هناك قوى اجتماعية في بلادنا اصبح لها من الوزن ومن القوة ما تستطيع به ان تسقط هذه المحاولة وهي بعد في دور التمهيد » .

وفي النهاية يبلور مصطفى كمال رأيه في عبارة مقتضبة « ان البديل الوحيد لنجاح مؤتمر جنيف هو حرب خامسة وعلى هذا الاساس يجب ان نعد انفسنا » فاذا وضعنا في الاعتبار ان الكتاب كله مكتوب ومصاغ بشكل يوحي ان الاسلوب المتبع في معالجة القضية لا بد ان يقود الى فشل مؤتمر جنيف ، ادركنا ان المؤلف ينبه الى ضرورة الاستعداد لحرب خامسة « حتى لا نخون فلسطين» وهي العبارة الاخيرة في الكتاب .

عبد العال الباقوري